

طائفة المستعمرين

في شمال أفريقيا

للأستاذ عبد المجيد بن جلون

ما من شك في أن فكرة الاستغلال الاقتصادي هي الأصل في الاستعمار ، فقد نشأت نتيجة لتطور الاختراعات ووجود أزمة المواد الأولية في دول قادمة على الصناعة الضخمة السريعة ، بينما توجد بلاد عاجزة عن الاستغلال وتوفر لديها المواد الأولية بكثرة في نفس الوقت . ثم استتبع ذلك حاجة الدولة المستغلة إلى إرسال أفراد إلى هذه البلاد ، لكي يشرفوا على العمل في أرض

لا يريد أن يصحو منه أبداً ، وفيها يرى الشخص نفسه كأنما هو يفسل وجهه ، أو يرتدى ملابسه ، أو في طريقه إلى المدرسة ، ومعنى ذلك أنه يفضل أن يحلم أنه استيقظ من النوم على أن يستيقظ منه فعلاً . وفي هذه الأحلام يرى أن الرغبة في النوم (وهي التي قلنا عنها إنها تدخل في تكوين الأحلام) ، تتمثل بوضوح وتبدو كأنها السبب الحقيقي في تكوين الحلم . وهي في هذا الاعتبار تدخل ضمن الحاجات الطبيعية الملحة التي ذكرناها سابقاً .

تذكرون أنني سبق أن قلت لكم إننا نجد في جميع الأحلام فيما عدا أحلام الطفولة وما يشبهها ، عائقاً يعوقنا عن التفسير وهو التحريف . ونحن لا نستطيع أن نقرر من الآن إن كانت هذه الأحلام أيضاً إشباعاً لرغبات ، كما أننا لا نستطيع أن نخمن أي مؤثر عقلي دفعها إلى التكوين ، ولا أن نثبت إن كانت هي أيضاً تمثل كأحلام الطفولة على تعريف الرغبات . فالحقيقة أن هذه الأحلام يجب أن تفسر أولاً ، أي ترجم ؟ ولذا يجب علينا أن نمكس عملية التحريف ، وأن نستبدل المحتوى الظاهر بالمحتوى الباطن ، وذلك قبل أن نقرر إن كانت الصفات التي اكتشفناها في أحلام الطفولة تنطبق أيضاً على بقية الأحلام على اختلاف أنواعها

(يتبع)

محمد جمال الدين حسن

يجز أهلها عن التنظيم والعمل ، طبقاً للنظريات الحديثة . وهكذا نشأت فكرة الاستيطان في البلاد المستعمرة ، أي أنها كانت تستند إلى عامل زيادة الإنتاج وتغذية المصانع بأكثر كمية مستطاعة من تلك المواد الأولية .

وإذا نحن انتقلنا إلى الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقية وجدنا أنه تعدى هذه الحدود تمديداً خفيفاً ، إذ اتخذ شكل هجرة كان للسياسة فيها دخل كبير ، وكان الأساس الظاهري الذي تستند إليه هو أن المنتج الفرنسي أقدر من المنتج المحلي ، ولذلك برزت فكرة انتزاع الأراضي وتوزيعها على المستعمرين الفرنسيين لتحقيق هذه المصلحة العامة ... المصلحة العامة التي لا تدخل في حسابها مصلحة الأهليين .

أما في الحقيقة فإن فرنسا كانت تستند في إرسال المستعمرين إلى شمال أفريقيا إلى بواعث سياسية منذ احتلت جيوشها الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وقد كان شمار الكونت ديسلي المحارب « الفتح بالسيف والمحرث » . وقد ظلت هذه العبارة شعاراً للاستعمار الفرنسي في أفريقية الشمالية إلى اليوم .

ولست مشكلة الجنسية التي أثارها فرنسا في الجزائر بيمية عن سياسة نزع ملكية الأراضي ، لأنها كانت تعمل على تفتيت القومية الجزائرية بإدخال عنصر جديد إلى البلاد عامل ونشيط ، وإذا لم يكن من المستطاع أن تكون فيها أغلبية عرقية فإنها كانت تفكر في إنشاء أقلية أكثر أهمية من الأغلبية المدنية ، وذلك بما يتوفر لديها من نشاط وقدرة وتفوق . ولذلك نجد أن فرنسا كانت تمنح جنسيتها للمواطنين بشروط مميعة ، ثم نجد أنها بعد ذلك قد منحت هذه الجنسية لليهود الجزائريين جملة واحدة بمقتضى قانون ١٤ أكتوبر سنة ١٨٧٠ .

ولا عجب لنا عن الإشارة إلى نشأة الاستعمار الفرنسي في الجزائر إذا نحن أردنا نفهم هذا الموضوع ، لأنه امتد منها إلى تونس ثم إلى مراکش . وجدت فرنسا الأراضي الجزائرية من أملاك الدولة طبقاً للنظام العثماني ، فأبقت على ذلك النظام لكي تستعين به على منح ما تشاء منها لمن تشاء . واستولت في الحال على أراضي الأتراك وأراضي المحاربين ، وكانت تمنح هذه الأراضي إلى الفرنسيين وتعترف لهم بملكيتها ، بينما ظلت الأرض التي

باريس في تشجيع طائفة المستعمرين هذه منذ نشأتها ، حتى إن التشريعات التي أصدرها نابليون الثالث لإنصاف عرب الجزائر قبرت في الإدارة المحلية بتأثيرهم ، وقد ظلت الإدارة تراوغ في تنفيذها إلى أن قامت الجمهورية الثالثة وتنوى أمر تلك التشريعات نهائيا .

ثم بعد ذلك مدت فرنسا حمايتها على تونس سنة ١٨٨١ ثم تقدم الزمن واستطاعت أن تمدّها على مراکش أيضا سنة ١٩١٢ فكان شعار الفرنسيين فيها أيضا هو « الفتح بالحراث والسيف » وجاء المستعمرون الفرنسيون في إثر الجيش وبدأت نفس الإجراءات القديمة تتخذ في أفريقية الشمالية كلها ، على الرغم من التباين الموجود في علاقة شعوبها بفرنسا ، ولم تمر إلا مدة قصيرة حتى كان خطر هذه الطائفة يهدد مراکش نفسها التي لم يمر اليوم على تبنيها لفرنسا سوى خمسة وثلاثين عاما .

وتعمل تلك الطائفة اليوم في تونس ومراكش على أن تنال كراسي في البرلمان الفرنسي لكي يزيد تأثيرها في السياسة الفرنسية وتعمد لإعتبار أراضيها أراضى فرنسية ، ولكنها اصطدمت بانقومية فيها ، وقد كاد يتم تأسيس دائرة انتخابية للفرنسيين فيها لولا احتجاج جلالة ملك مراکش وسمو باي تونس على ذلك ، ولولا أن الوضعية السياسية في البلدين تمنع من تأسيس مثل هذه الدائرة ، ولكن هذا لم يفت في عضد المستعمرين ، إذ ما زالون يسمون في نشاط للوصول إلى غايتهم متحيين الفرص وعاملين على خلفها .

وهم يتخذون مختلف الوسائل المشروعة وغير المشروعة للتأثير على العسكريين والموظفين ، سواء في هذه البلاد أو في فرنسا . وعلى ذلك فإننا نستطيع أن نقول إن وجود هذه الطائفة خطر شديد على الحياة الاقتصادية ، إذ يستطيع أفرادها بما لهم من نشاط وقدره وأساليب خاصة ، أن يهدموا القواعد التي تسير عليها الدولة حتى إن كبار الموظفين الفرنسيين يصطدمون بهم ، وقد حدث كثيرا أن اصطدم بهم ممثل فرنسا نفسه .

وتمتاز طائفة المستعمرين بالجنس الذي لا نهاية له ، والأناثية التي تستهين بكل شيء في سبيل تحقيق المكرب الشخصية ، كما يمتاز أفرادها بالتمصب والتطرف وسرعة التأثر ، وبالميل الدائب المستمر على الوقوف في وجه الأهالي حتى لا يكسبوا أى حق من الحقوق لأنهم يعتقدون أن في ذلك ما يمس مصالحهم ، وهم

يقم فيها المواطنون غير معترف بملكيتهم لها . وقد امتد هذا الأمر إلى سنة ١٨٦٣ ، حينما اعترف لهم نابليون الثالث بهذه الملكية .

وخرجت فكرة المحراث من حيز التفكير إلى حيز الوجود وبدأ الفرنسيون يدفعون بالجزائريين إلى الجنوب ليستولوا على الأراضي الخصبة في الشمال . لكنهم وجدوا أنفسهم أمام مشكلة جديدة هي : من أين لهم أن يوجدوا طائفة المستعمرين وبلادهم عاجزة عن المستعمرين من أبنائها ؟

حصل بعد الثورة الفرنسية في سنة ١٨٤٨ — وهي السنة التي صدر فيها قرار باعتبار أراضى الجزائر أراضى فرنسية — أن عمت البطالة بين الطبقة العاملة في باريس ، إلى درجة فادحة ، فقرر المجلس الوطني الفرنسي إرسال العمال إلى الجزائر لاستعمار الأراضي ، ليخفف بذلك من حدة البطالة ، وبحقق المهدف الاستعماري في تلك البلاد . وكانت الحكومة تنقل العمال مجانا إليها فإذا وصل العامل إلى هناك منحه عشرة هكتارات من أجود الأراضي الزراعية .

بيد أنه لم يكن من اليسير أن يصبح عامل المصنع فلاحا . لقد توافد هؤلاء المستعمرون إلى أرض الجزائر أفواجا أفواجا ولكن بدلا من أن يبرهنوا على تفوقهم في الانتاج أفسدوا الأرض وعجزوا عن استغلالها ، وما هي إلا بضع سنوات حتى بدأوا يرجعون إلى فرنسا من جديد وكان عدد الذين رجعوا أكثر من النصف .

وهكذا عجزت فرنسا عن أن تمد الجزائر بالفلاحين من أبنائها ، ولكنها لم تستطع بالرغم من ذلك أن تتنازل عن فكرة إيجاد أقلية تنفذ القومية التي قد تحدث لها مشاكل في المستقبل تعجز عن مقاومتها ، ولذلك عمدت إلى اتخاذ إجراء خطير ، هو تشجيع الأجانب من اسبانيا وإيطاليا وكورسيكا على الهجرة إلى تلك البلاد والقيام بالدور الذي عجز أبنائها عن القيام به . وفلا توافد عليها خليط غريب من أجناس مختلفة ، منحتهم فرنسا جنسيتها مقرونة بامتيازات عديدة ، ووزعت عليهم الأرض ، ومن هؤلاء تناسات الكثيرة الغالبة من طائفة المستعمرين ، الذين يدعون أنفسهم بالفرنسيين الجزائريين ، وازداد خطرهم استفحالاً مع مرور السنين .

ولقد كانت الإدارة المحلية دائماً أشد تطرفاً من حكومة